ظهر الفساد بما كسبت أيدي الناس

www.eajaz.org

أ.د الحسين زايد

و

أ.د عبد الكبير بلاوشو

- المدخل
- منزلة الإنسان في الإسلام.
- الفساد كمصطلح قرآني.
- في رحاب الآية المعجزة.
- بعض مظاهر الفساد في البر والبحر.

* المكون الأساسي للحياة: الماء.

* المكون الحيوي الثاني: الهواء.

– ظاهرة الانحباس الحراري.

– ظاهرة الدخان الضبابي.

– ظاهرة الأمطار الحمضية.

– ظاهرة ثقب الأزون.

* المكون الحيوي الثالث: التربة.

– ظاهرة التخصب.

– ظاهرة التصحر.

– ظاهرة الرضيع الأزرق.

* المكون الحيوي الرابع: التنوع البيولوجي.

- خاتمة.
- مراجع.

الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة
INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH
www.eajaz.org

مـــدخـــل:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حث عباده، كل عباده ولم يستثن منهم أحدا، على البحث عنه في كل ما خلق، وعلى الاهتداء إليه عبر العقل الباحث المفكر والمدبر ... حثهم على طلب العلم والعمل به، فنفخ فيهم روحا وهاجة، وبث فيهم من علمه عقلا فياضا، يحول النور إشعاعا إنسانيا، أو يدعه يخفت وئيدا فيصبح ظلاما دامسا.

والمسلم مطالب بأن يتدبر آيات الله، المكتوب منها والمنظور، وأن يفعل عقله وفكره ووجدانه في فقه معانيها وفهم دلالاتها لتطمئن الجوارح وتستقر الخواطر إلى أن القرآن هو تنزيل من الله عز وجل، وحجة إلى العقل الإنساني أو عليه، على اعتبار أن العلم حجة على أهله لأنه مناط التكليف، حيث أن العلم يجعل العقل لا يقبل قضية إلا إذا كانت مشفوعة بالبرهان القاطع، ولا يرجح راجحا على مرجوح إلا بدليل ساطع، ويستطيع التفرقة بين الأدلة القطعية والظنية.

أمام هذا، فهو لا يقف إلا على ما يثق فيه، وإلى ما يطمئن إليه حسب مقدرته من التقييم ورصيده من التجريب. لهذا، نجد أنفسنا أمام من يأخذ بالظنة ويقول عليها، ومن يطلب بالدليل القطعي الذي يعطيه واقعا لا يرقى إليه الحدس أو الريبة.

ونحن اليوم نستفيد من الكشوفات والأبحاث العلمية، والعلم قد بلغ مراحل خطيرة من التفوق والنفاذ ولم يتوقف عند حد، فقد أصبح لزاما علينا في آن واحد، أن نؤمن بآيات الله المنزلة لقوله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"[1].

وكذلك من الواجب والفريضة أن نتدبر آياته الكونية لقوله عز وجل: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك، فقنا عذاب النار"[2].

والقرآن الكريم حافل بالإشارات العلمية الكونية، وكل منها يدعو الفطرة الموحدة لمزيد من التوحيد والخشوع والخشية أمام عظمة الله الواحد القهار، وأكثر الناس إدراكا لها المتخصصون: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"[3].

يتمحور هذا البحث حول منزلة الإنسان من المنظور الإسلامي باعتباره مستخلفا في الأرض وعليه تقع مسؤولية إدارة مواردها.

ثم يعرف مفهوم الفساد كمصطلح قرآني مبرزا المعنى اللغوي والشرعي والمفهوم المعاصر قبل أن يتطرق لبعض مظاهر الفساد المرتبطة بالأنشطة البشرية والتي تطال الماء والهواء والتربة وانعكاساتها السلبية على صحة الإنسان وإنتاجيته.

ويخلص في الأخير على ضرورة أخذ العبر من النتائج الوخيمة التي لحقت بالإنسان عندما خضع لغريزته واتبع هواه فتصرف بأنانية مطلقة وقدم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة ... فأفسد في الأرض بعد إصلاحها وحلت به المصائب والكوارث وهي بالنسبة للعارفين بالله نوع من أنواع الأخذ الرباني للأمم المتمردة التي تخلت عن منهج الله ولم ترق إلى مستوى الخلافة وارتضت حكم الأهواء "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد"(٤).

وكان الإنسان أكبر المتضررين.

فكان عليه آنذاك مراجعة نفسه ... فجاءت التقارير تلو التقارير، من المنظمات الدولية وغير الدولية، الحكومية منها وغير الحكومية، كلها تصب في اتجاه واحد: "لنوقف هذا الزيف!" مما يدل على تنامي الوعي والاهتمام بإشكالية البيئة دوليا وإقليميا ووطنيا.

فكان مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية في استكهولم سنة ١٩٧٢ وكانت قمة الأرض في ريودي جانيرو سنة ١٩٩٢ والتي صاغت برنامج عمل طموح "جدول أعمال القرن ٢١" **(Agenda 21)**.

وكان مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة سنة ١٩٩٤ ومؤتمر التنمية البشرية في كوبنهاغن سنة ١٩٩٥ ومؤتمر المستوطنات البشرية في إسطانبول سنة ١٩٩٦ ثم قمة "ريو + ٥" سنة ١٩٩٧ وقمة "ريو + ١٠" للتنمية المستدامة سنة ٢٠٠٢ في جوهانسبورغ ولازال المشكل البيئي قائما شاهدا على خيبة الأمل بالنسبة للعديد من الالتزامات والتعهدات التي بقيت حبرا على ورق، ويستدعينا جميعا لقمة من نوع آخر، "قمة الرجوع إلى الله" عز وجل حتى تنفرج الكرب وتعود النعم التي أنعم الله علينا بها، مصداقا لقوله تعالى: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون"(٥)، ونضمن بذلك مستقبلا بيئيا سليما لنا وللأجيال القادمة.

منزلة الإنسان في الإسلام:

يروي لنا القرآن الكريم الحوار الذي دار بين الخالق عز وجل وملائكته حول خلق آدم (عليه السلام) والخلافة في الأرض:

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"(٦).

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض"(٧).

فالإنسان إذن مكرم بالخلافة في الأرض.

ونجد كذلك في سورة الإسراء إشارة أخرى لهذا التكريم:

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"(٨).

ومن مظاهر هذا التكريم والتفضيل الذين حظي بهما الإنسان

- أن سواه الله ونفخ فيه من روحه "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي..."(٩).
- وأمر الملائكة أن يسجدوا له "... فقعوا له ساجدين"(١٠).
- وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

"هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا"(١١).

"وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه"(١٢).

"وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتيكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار"(١٣).

والتسخير هو التذليل بلا أجر ولا ثمن، أي بدون مقابل، يشترك في هذا المؤمن والكافر "كلا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا"(١٤) فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي حباه الله بقدرة التسلط على المخلوقات الأخرى والتحكم فيها وإخضاعها لسيطرته، وكيف لا، والكون كله مسخر له!

وقد منح الله هذا الإنسان من الطاقات والقدرات ما لم يمنحه لغيره من الكائنات، فوهبه سبحانه وتعالى وسائل ليقوم بعمارة الأرض "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"(١٥)، واستثمار خيراتها وكنوزها، والانتفاع بكل ما عليها، ويستنبط سنن الله الكونية في الحياة، غير أن هذا التفضيل الذي حباه الله به قد يجعل منه كائنا خطيرا إن لم يحسن التصرف والتدبير، فكل شيء خلقه الله لمصلحة ومنفعة المخلوقات، خلقه بقدر محدد وبميزان:

"إنا كل شيء خلقناه بقدر"(١٦).

"وكل شيء عنده بمقدار"(١٧).

"والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون"(١٨).

وكل تدخل بشري يخل بهذا التوازن، إنما ينجم عنه خلل قد يتحول إلى فساد.

ومع التسوية ونفخ الروح وإسجاد الملائكة له، منحه الله العقل المتدبر لا العقل المتعطل يستنبط به الكامن من بديع صنعه بفطنته ويستكشف الغامض من عظيم خلقه بدقيق فكره، فيتأمل ما حوله حيث تتمثل حكمة الله وتتمظهر آياته الجليلة.

"ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك"(١٩).

ورغم هذه المنح كلها، لم يترك الله الإنسان يتخبط بين المعرفة والجهل، وبين اليقين والشك، فأرسل الرسل والأنبياء حتى تقام الحجة "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا"(٢٠).

من هنا، كان القرآن منهجا لحركة الإنسان في الحياة وأداء وظيفته ومهمته في الاستخلاف ودستورا ينظم للناس معاشهم ومعادهم.

فكانت تلك الغايات التي من أجلها أوجد الله الإنسان: الخلافة في الأرض وعمارتها وتحقيق عبودية الله وحده وهو سلوك منبثق من معرفة الخالق والإيمان به عن طريق توظيف العقل والقراءة واستكناه حقيقة الكون من حولنا.

قال تعالى:

"إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا"(٢١).

فها هو الكون كله يسلم لله ويرفض أن تكون له الخيرة في أن يؤمن أو لا يؤمن، يسلم عن طواعية ويختار طريق الإيمان دون أن تكون له إرادة في المعصية.

"ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض إيتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين"(٢٢).

أما الإنسان، فقد قبل أن يحمل الأمانة وما يترتب عنها من تداعيات إيجابية أو سلبية. فنعت من أجل ذلك بالظلوم الجهول (مبالغة في الظلم والجهل) لعدم تقديره لعظم المسؤولية التي تنتظره وخطورتها وهولها. قبل أن يأتي الله باختيار وحب، وحيث أنه يستطيع فعل ذلك، فباستطاعته كذلك القيام بعكس ذلك.

فهناك إذن حرية في الإيمان، والحرية تقتضي أن يكون المرء مسؤولا.

غير أن هذا الإنسان، المخلوق من عنصرين المادة والروح، تتنازعه نزعتان: نزعة تشده إلى الأرض وما فيها من عبودية للمادة، ونزعة تسمو به إلى السماء وما فيها من عبودية لله.

"إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا"(٢٣).

"ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"(٢٤).

فإما أن يهذبه العنصر الروحي الإلاهي فيسمو به ويرفعه إلى السماء فيصبح من الشاكرين وإما أن يتغلب عليه العنصر الترابي فيشده إلى الأرض ويسعى فيها فسادا ويكفر بخالقه فيكون من الخاسرين والعياذ بالله، ويصدق عليه قوله تعالى:

"واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"(٢٥).

لهذا كان على الإنسان العاقل أن يتجنب العبث وإلحاق الضرر بمكونات الوسط الذي يحيى فيه. فجاء القرآن ليحذرنا من أن الفساد في الأرض قد يترتب عليه إهلاك للحرث والنسل "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد"(٢٦).

وذكر الحرث والنسل إشارة للنبات والحيوان وهما أساس التغذية لدى الإنسان.

كما أمرنا القرآن الكريم أن نتجنب التبذير.

"ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا"(٢٧).

"كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين"(٢٨).

ونبحث عن الوسطية.

"والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما"(٢٩).

"ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا"(٣٠).

لأننا أمة وسط "وكذلك جعلناكم أمة وسطا"(٣١).

وجاءت تعاليم السنة النبوية الشريفة لتربينا على احترام البيئة ومكوناتها فجعلت إماطة الأذى والحجر والشوكة والعظم عن الطريق من محاسن الأعمال وشعبة من شعب الإيمان.

يقول الرسول (ص) في هذا الباب:

"الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة، فأفضلها قول لا إلاه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"(٣٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله (ص):

"عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق. ووجدت من مساوئ أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تدفن"(٣٣).

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله (ص):

"... وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة"(٣٤).

وفي حديث البخاري ومسلم عن رسول الله (ص):

"ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".

وجاء في صحيح البخاري أن رسول الله (ص) مر عليه بجنازة فقال مستريح ومستراح منه. قالوا يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب.

وجاءت الشريعة السمحة لتحرم الفساد وتمنعه بالضرب على أيدي المفسدين، وتضع من بين مقاصدها الحفاظ على النفس، مما يستلزم الحفاظ على الحياة وتحري العافية والبحث عن الوقاية والعلاج والتغذية، والسعي وراء سلامة مافينا وسلامة ما حولنا، وهو ما اصطلح عليه باسم البيئة.

الفساد كمصطلح قرآني:

التعريف المفاهيمي:

مقاربتنا لظاهرة الفساد تقتضي الوقوف عند دلالة هذا المصطلح وحمولته القيمية، من هنا ارتأينا تقديم معنى الفساد في الاصطلاح اللغوي ومن المنظور الشرعي انتهاء بالمفهوم المعاصر الشامل والأوسع لهذا المصطلح.

الاصطلاح اللغوي:

فسد: الفساد: نقيض الصلاح، فسد يفسد ويفسد وفسد فسادا وفسودا، فهو فاسد وفسيد فيهما، ولا يقال انفسد وأفسدته أنا، وقوله تعالى: ويسعون في الأرض فسادا؛ نصب فسادا لأنه مفعول له أراد يسعون في الأرض للفساد.

وقوم فسدى كما قالوا ساقطو سقطى، قال سيبويه: جمعو مجمع هلكى لتقاربهما في المعنى. وأفسده هو واستفسد فلان إلى فلان.

وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام؛ قال:

يمددن بالشدي في المجاسد
إلى الرجال، خشية التفاسد

يقول؛ يخرجن ثديهن يقلن: ننشدكم الله ألا حميتمونا، يحرضن بذلك الرجال.

واستفسد السلطان قائده إذا أساء إليه حتى استعصى عليه.

والمفسدة: خلاف المصلحة. والاستفساد: خلاف الاستصلاح. وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكذا أي فيه فساد؛ قال الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجده
مفسدة للعقل، أي مفسده،

وقوله عز وجل: ظهر الفساد في البر والبحر؛ الفساد هنا: الجدب في البر والقحط في البحر أي في المدن التي على الأنهار؛ هذا قول الزجاجي. ويقال: أفسد فلان المال يفسده إفسادا وفسادا، والله لا يحب الفساد.

وفسد الشيء إذا أباره؛ وقال ابن جندب:

وقلت لهم: قد أدركتكم كتيبة

مفسدة الأدبار، ما لم تخفر

أي إذا شدت على قوم قطعت أدبارهم ما لم تخفر.

الأدبار أي لم تمنع. وفي الحديث: كره عشر خلال منها إفساد الصبي غير محرمه؛ هو أن يطأ المرأة المرضع فإذا حملت فسد لبنها وكان من ذلك فساد الصبي وتسمى الغيلة؛ وقوله غير محرمه أي انه كرهه ولم يبلغ به حد التحريم.

الدلالة الشرعية:

الفساد في دلالة القرآن والسنة وفق تفسير الجلالين هو الخروج عن حد الاعتدال بالكفر والشرك والتعويق عن الإيمان وبالمعاصي وإهلاك الحرث والنسل وقتل النفس بغير حق والسعي إلى قطع الطريق، والنهب والبغي والتخريب والعثو والعودة إلى حياة الجاهلية بكل مظاهرها. تلكم الفساد والإفساد والقائمون عليه مفسدون.

غير أننا نجد هذا المصطلح يأخذ معنى مناقضا تماما لمعناه الأصلي عندما يوظف من طرف المفسدين أنفسهم؛ فها هو مثلا فرعون الذي كان يشكل قمة الفساد آنذاك يقول واعظا ومشفقا على الناس من موسى (عليه السلام): "وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد"[٣٥].

وينصب نفسه المرشد والهادي إلى الطريق القويم: "قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد"[٣٦].

وقد سيقت كلمة الفساد ومشتقاتها في ٥٠ آية قرآنية بصيغ مختلفة نذكر منها:

لفسدت – لفسدتا – أفسدوها – لتفسدن – تفسدوا – لنفسد – يفسد – ليفسدوا – يفسدون – الفساد – فسادا – المفسد – المفسدون – مفسدين – المفسدين.

المفهوم المعاصر:

في عصرنا هذا، يتسع مفهوم الفساد ليطال كل مناحي الحياة بتمثلات جديدة وتمظهرات ومسميات وليدة هذا الزمان، فنجد الفساد في التصور، والفساد في الممارسة والسلوك، والإفساد في المحيط وفي الأنظمة الإيكولوجية أو ما يسمى اصطلاحا بالتلوث البيئي، كما نجد أيضا الفساد أو التلوث الأخلاقي، والفساد الإيديولوجي، والفساد في الكلمات والمفاهيم والمصطلحات. حيث الفساد موجود بوجود الفعل الإنساني، حتى أصبح لسان حالنا يدعو لتخليق الممارسات ومجالات الحياة المهنية والمجالات البيئية ليعود الاعتبار بذلك للضوابط والقواعد الأخلاقية والشرعية.

في رحاب الآية المعجزة:

يقول الحق عز وجل: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون"(٣٧).

آية واحدة تتكلم عن حدوث الظاهرة (ظاهرة الفساد)، وعن مكان حدوثها (في البر والبحر، ويعتبر الغلاف الجوي الذي لم ينج من الفساد هو الآخر، تابعا للبر) وعن المسؤول عن حدوثها (بفعل الإنسان) وعن المتضرر منها (فالعواقب والكوارث البيئية تلحق الضرر بالوجود الإنساني) والعبرة من هذا تقتضي الإقتداء بالمنهج الرباني (رجوع الإنسان إلى خالقه) لأن حدوث الفساد وما يترتب عنه من أضرار يقتضي الوقوف عند الظاهرة وتفكيك عناصرها وتحليل أسبابها بهدف معالجة مسبباتها لتجنب الوقوع فيها ثانية.

آية نزلت منذ خمسة عشر قرنا لم يكن الإنسان آنذاك يعرف شيئا عن التلوث وانعكاساته الخطيرة على التنوع البيولوجي ولا عن التنمية المستدامة ولا عن التغيرات المناخية بسبب الانحباس الحراري ولا عن ظاهرة البيوت الزجاجية ...

هذه الآية تجعل الإنسان المسلم يقف إجلالا لما يجد فيها من إعجاز، فينبهر للشمولية التي تضمنتها، وتهتز مشاعره في ضوء منهج إسلامي علمي متكامل، يكاد يخيل إلينا أنها أنزلت لهذا الزمن، زمن التلوث والفساد ... فنجد أنفسنا منها أمام وعي شامل بهشاشة ما حولنا وعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقنا وخطورة العاقبة التي تنتظرنا ... منهج متكامل يجعل الإنسان يدرك مركزه في الكون ويدرك الكون نفسه.

وفي هذا الصدد، يقول الدكتور صبحي الصالح:

"وهنا برزت معالم هذا المنهج الإسلامي الكوني الذي أنشأ للمسلمين علما قد يصطلح على تسميته علم الوعي الكوني من طريق الإسلام وهو مؤلف من قيم كثيرة نكتفي بذكر خمس منها بإيجاز شديد، إنها أربع على مستوى الأكوان والخامسة التي تتممها هي على مستوى الإنسان. أما الأربع الكونيات فهي:

- قيمة الزمان لرفض العدم.
- وقيمة الحياة لرفض العبث.
- وقيمة الأرقام لرفض الأوهام.
- وقيمة الفضاء لرفض الفراغ.

وأما الخامسة التي تكملها وإليها نهاية المطاف في هذه الحياة الفانية قبل المصير إلى دار الخلود فهي قيمة الشخص، لرفض الهوى، والانسحاق والاستغلال والانحلال".

ولأن هذا البحث يدور حول الآية المعجزة، فهو يركز أساسا على مسؤولية الإنسان تجاه محيطه المتكون من التربة والهواء والماء. لذا كان لابد أن نتوقف عند بعض التهديدات التي تطال المجال البيئي من جراء أنشطة بشرية غير مسؤولة في قطاعات شتى (من فلاحة وصناعة ونمط عيش وغيرها) والتي تتسبب في الإخلال بالتوازنات البيئية.

بعض مظاهر الفساد في البر والبحر:

شهدت الكرة الأرضية منذ مطلع الثورة الصناعية ولحد الآن تصاعدا مستمرا في كمية التلوث التي أصبحت تعم اليابسة والماء والهواء على حد سواء.

إن المجتمعات البشرية التي تعاقبت على الأرض أحدثت تغييرات على الوسط الذي كانت تعيش فيه. فأنتجت نفايات وفضلات وقذفت بها في الوسط الطبيعي بدون أخذ أية إجراءات وقائية، وبذلك تكون قد دشنت بداية لمسلسل التلوث الذي لم تنته حلقاته بعد. وقد ظل هذا التلوث بدون عواقب تذكر في مرحلته الأولى، لكن سرعان ما تحول، مع التطور الصناعي والفلاحي خلال القرنين الماضيين، إلى كارثة أتت على كل مكونات الحياة من ماء وتربة وهواء، فـ "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس".

المكون الأساسي للحياة: الماء

لا تزال القدرة على الحصول على المياه النقية حاجة عاجلة للبشر في كثير من البلدان، ويعزى جانب من المشكلة إلى التلوث فيما يرجع الجانب الآخر إلى نقص في الموارد المائية.

ويعتبر الماء من المنظور الإسلامي:

* أساس الوجود.

"وكان عرشه على الماء"(٣٨).

"وجعلنا من الماء كل شيء حي"(٣٩).

* وأصل كل الأحياء.

"والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء"(٤٠).

"فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب"(٤١).

* ومصدر رزق وغذاء للإنسان والحيوان والنبات.

"ألم تر أن الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه"(٤٢).

لذا، فقد اهتم به الإسلام أيما اهتمام وحث على الاقتصاد في استعماله والحفاظ عليه من التلوث. فكان النبي (ص) تكفيه كمية قليلة من الماء للاغتسال والوضوء. نفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله (ص) مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف ؟ قال: أفي الوضوء إسراف ؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار(٤٣). وجاء في صحيح البخاري أن الرسول (ص) قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم" (الذي لا يجري).

من هنا كانت حماية الموارد المائية العذبة وترشيد استعمالاتها من الأولويات التي ينبغي للمسلم الاعتناء بها.

فالكثير من معاناة البشر ينجم عن أمراض يمكن التغلب عليها إلى حد كبير عند توفير إمدادات ملائمة للمياه وإنشاء شبكات للصرف الصحي.

وأكثر أشكال تلوث المياه انتشارا ناتج عن فضلات البشر الحاملة للأمراض (أنظر الصورة ١). وفي هذا الصدد، يفيد تقرير "برنامج الأمم المتحدة للبيئة" **(PNUE)** لسنة ٢٠٠٢ بأن كمية المياه المستعملة التي تقذفها الدول النامية في تزايد نتيجة التعمير السريع والنمو الديمغرافي المتزايد.

فإذا علمنا أن مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة ترمي كل ثانية مترا مكعبا من الماء الملوث، والذي يحتوي كل ميليلتر منه (أي جزء من ألف من اللتر) على مليوني أو ثلاثة ملايين من الجراثيم، وإذا علمنا أن مترا مكعبا من مياه الصرف يلوث ٢٥ مترا مكعبا من المياه الصالحة للشرب، أصبح الأمر واضحا على ضرورة إيقاف هذه الكارثة البيئية وبشكل استعجالي حتى لا ينفلت زمام الأمور وتصير هذه الأخيرة إلى نقطة اللاعودة.

ومن حكمة الله عز وجل ورحمته بنا أن حبا الوديان والأنهار بقدرة التصفية الذاتية (auto-purification) وهي خاصية ذات أهمية قصوى بالنسبة لمصير الكائنات الحيوانية والنباتية والإنسان، لكنها تبقى محدودة وتتقلص فعاليتها كلما زاد حجم النفايات أو نقصت كمية الماء المتدفقة.

وليس من الغريب أن يجيء في تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة لسنة ٢٠٠٢ أن ما يناهز نصف أنهار العالم تشكو من التلوث.

الجدول ١: المسحوبات القطاعية من المياه حسب مجموعة الدخل القطرية

مجموعة الدخل	نصيب الفرد من المسحوبات السنوية (بالأمتار المكعبة)	المسحوبات حسب القطاع (نسبة مئوية)		
		المنازل	الصناعة	الزراعة
الدخل المنخفض	٣٨٦	٤	٥	٩١
الدخل المتوسط	٤٥٣	١٣	١٨	٦٩
الدخل المرتفع	١١٦٧	١٤	٤٧	٣٩

(المصدر: معهد الموارد العالمية: ١٩٩٠)

ومن أهم أسباب تلوث المياه، يمكن الحديث عن:

- غياب معالجة المياه المستعملة.
- إلقاء النفايات الصناعية مباشرة في الوديان.
- تسربات مخازن حاملات النفط.
- بقايا المخصبات والمبيدات المستعملة في الزراعة.
- الأمطار الحمضية.

www.eajaz.org

ولا يزال شبح الموت يخيم على المجتمعات البشرية خصوصا في البلدان النامية، فيحصد حسب المنظمة العالمية للصحة ما بين ٣ و٤ ملايين شخصا سنويا من جراء أمراض متعلقة بجودة الماء (كالإسهال، والتسممات والأمراض الطفيلية ...). فيلتجئون أمام هذا التدهور البيئي الخطير ذي الانعكاس الصحي القاتل إلى البحث عن حلول قد تكون في غالب الأحيان مؤقتة أو غير ملائمة. وهكذا قامت الحكومات في البلدان المصنعة بإجراءات قانونية في العقود الأخيرة بهدف حماية الموارد الوطنية، ومن بين هذه التدابير، معالجة المياه المستعملة وإحداث محطات لتصفية المياه الملوثة. أما في البلدان النامية فلا تزال تكلفة تقنية تصفية المياه تشكل عائقا ماديا لا يستهان به.

فلو أخذنا بعين الاعتبار التكاليف الباهظة التي تكبدها المياه الملوثة والصرف الصحي القاصر للصحة البشرية والإنتاجية، وكذا الضغوط التي يفرضها الطلب البشري المتنامي بسرعة على موارد المياه، لجاز لنا دق ناقوس الخطر على أن الماء سيصبح –خلال السنين المقبلة– مثل الطاقة: من المصادر الحساسة التي ستقام الحروب حولها.

أما بالنسبة لمعالجة المياه المستعملة وإعادة استعمالها، فلنا في الإعجاز البيولوجي لجسم الإنسان (وخاصة الجهاز البولي) خير مثال حيث أن كمية الماء التي يضخها القلب خلال اليوم الواحد عبر الشرايين والأوردة تقدر بحوالي عشرة إلى خمسة آلاف لتر. فإذا علمنا أن متوسط حجم الدم عند الإنسان يعادل خمس لترات، خلصنا إلى أن جسم الإنسان يستعمل ويعيد استعمال كل لتر من الماء ألفين إلى ثلاث آلاف مرة حتى تستنفذ صلاحيته ويصبح غير قابل للاستعمال فيتخلص منه الجسم على شكل السائل البولي.

"وفي أنفسكم، أفلا تبصرون"(٤٤).

المكون الحيوي الثاني: الهواء

يحتوي الهواء على غازات حيوية وأخرى سامة. من بين الغازات الحيوية نجد الأكسيجين (O_2) الذي يدخل عموما في عملية التنفس، وثاني أكسيد الكربون (CO_2) الذي يستهلك بواسطة النباتات الخضراء (عناصر الإنتاج) في إحدى أهم عملية كيميائية حيوية عرفتها الأرض: عملية التركيب (أو التخليق) الضوئي (Photosynthèse).

ومن بين الغازات السامة الموجودة في الغلاف الجوي نذكر على سبيل المثال لا الحصر أكسيد الكربون (CO) الذي ينتج عن الاحتراق غير التام للمواد العضوية، وأكسيدات النتروز (NO, NO_2) وثاني أكسيد الكبريت (SO_2).

www.eajaz.org

من أخطر أنواع التلوث ذاك الذي يطال الهواء والذي من أهم مصادره الدخان الناتج عن احتراق المواد ... فهناك ثلاثة مصادر أساسية سببها الرئيسي هو الإنسان، تؤدي كلها إلى تلوث الهواء:

- استخدام الطاقة.
- انبعاث الغازات من السيارات والشاحنات.
- الإنتاج الصناعي.

ومن المعلوم أن الأضرار الناتجة عن الدخان لا تقتصر على صحة الإنسان فحسب بل تتعداها إلى أضرار بيئية نذكر من بينها: الانحباس الحراري والتغيرات المناخية وإفقار طبقة الأوزون وهطول الأمطار الحمضية.

* ظاهرة الانحباس الحراري:

لقد تضاعفت انبعاثات ثاني أكسيد الكربون (CO_2) ثلاث مرات خلال أقل من نصف قرن من الزمن. يتراكم هذا الغاز في الطبقات العليا للغلاف الجوي للأرض حيث يعمل على حفظ حرارة الأرض لكونه يعكس جزءا منها ويمنعها من التسرب إلى الفضاء الخارجي كما هو الشأن مع البيوت البلاستيكية أو الزجاجية.

ويذهب كثير من العلماء على أن الغازات ذات مفعول الانحباس الحراري مثل ثاني أكسيد الكربون والميثان (Méthane) وغيرهما قد تتسبب في ارتفاع تدريجي لحرارة اليابسة وما يترتب عنها من تغيرات مناخية هامة.

فمن المتوقع كنتيجة لهذا أن يزداد ذوبان الثلج في القطبين وبالتالي ترتفع نسبة المياه في الأنهار والبحار وما يتبع ذلك من فيضانات قد تغرق بعض المناطق الساحلية.

* ظاهرة الدخان الضبابي:

من مظاهر تلوث الهواء الواضحة وجود الدخان الضبابي (Smog) فوق بعض المدن الكبرى نتيجة انبعاث الغازات من المصانع والسيارات. وتبين الدراسات أن هناك ازديادا في الوفيات مع ارتفاع تركيز المواد الهبائية الدقيقة العالقة، وخاصة بين كبار السن المصابين بأمراض مزمنة أو بانسداد الشعيبات الرئوية، أو الالتهاب الرئوي أو أمراض القلب.

فمع وجود ضوء الشمس، تتفاعل هذه الغازات فتشكل كثافة عالية من الدخان يمكن ملاحظته معلقا في الهواء على علو كيلومترات قليلة من الأرض.

* ظاهرة الأمطار الحمضية:

من بين الغازات السامة الموجودة في الدخان غازان مسؤولان عن تكون الأمطار الحمضية وهما ثاني أكسيد الكبريت (SO_2) وثاني أكسيد النيتروز (NO_2). هذان الأخيران يتفاعلان مع ذرات الماء فينتجان على التوالي حمض الكبريتيك (H_2SO_4) وحمض النيتريك (HNO_3) اللذان يعتبران سما قاتلا يقضي على النباتات والغابات والبحيرات ويتسبب في إتلاف المنشآت.

فمن نعمة قد يصبح ماء المطر نقمة لأن درجة الحمضية التي يحتوي عليها تذيب أملاح الألومنيوم السامة التي تأتي على الحيوانات والنباتات المجهرية فتدمرها مما يؤدي إلى ندرة في الأسماك التي تتغذى عليها. وقد شوهدت هذه الظاهرة في الشمال الشرقي للقارة الأمريكية وأوربا ومؤخرا في الصين.

"قل أفرآيتم الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون"(٤٥).

* ظاهرة ثقب الأوزون:

غاز الأوزون (O_3) متواجد في غلاف رقيق في الطبقة العليا من الغلاف الجوي (على علو ٢٥ كيلومتر). وحدث أن قرع ناقوس الإنذار سنة ١٩٨٥ بشأن ثقب وقع في طبقة الأوزون (انظر الصورة ٢) فوق القارة القطبية الجنوبية (antarctique) فتوجهت أصابع الإتهام إلى مركبات تحتوي على عنصري الكلور (Cl) والفليور (F) من أبرزها مركب الكلورو فليورو كربون (CFC) وتستعمل هذه المركبات في صناعة الثلاجات.

ومن المعلوم أنه بدون أوزون تنعدم الحياة لأن هذا الغاز الوقائي مسخر من عند الله عز وجل ليلعب دورا حيويا في حماية الحياة على الأرض من الأشعة ما فوق البنفسجية (Rayons UV) المدمرة.

وأمام هذا التهديد الخطير، فقد وقع سنة ١٩٨٧ ما يقرب من ثلاثين دولة مصنعة اتفاقية مونريال (Protocole de Montréal) التي تهدف في مرحلة أولى إلى الحد من استعمال مركبات الكلور والفليور (CFC) ومنعها تماما في المرحلة اللاحقة.

ومن النتائج الهامة المترتبة على استتراف الأوزون زيادة الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس والتي يستقبلها سطح الأرض. ومن المحتمل أن تسجل زيادة في سرطانات الجلد غير الخبيثة التي تصيب في المقام الأول أصحاب البشرة البيضاء إذا لم تتخذ التدابير اللازمة.

المكون الحيوي الثالث: التربة

إن الإنتاج الزراعي رهين بنمو النبات، ولكي ينمو النبات لابد له من تغذية متوازنة من أملاح معدنية وماء وشمس ... من هنا كان التفكير في إضافة الأسمدة أو المخصبات لتعويض النقص المعدني الذي يطال التربة من جراء امتصاص الأملاح المعدنية من طرف جذور النبات وجني الغلة وتحويلها من الحقل إلى المستهلك.

غير أن إضافة الأسمدة التي أريد بها تحسين النمو والمردودية بالنسبة للنبات، أخذت أبعادا خطيرة. فعن أي ربح نتكلم إذن ؟

إن كنا نتحدث عن الربح المادي، فهذه نظرة ضيقة ومؤقتة وجد أنانية لأن في المقابل هناك خسارة جسيمة في ميدان البيئة والصحة والاقتصاد.

* ظاهرة التخصب:

وحتى تكون الفكرة أوضح، سنضرب مثالا لهذا: عندما يريد المزارع الرفع من المردودية، يقوم في غالب الأحيان بإضافة أسمدة تحتوي عموما على أملاح معدنية نذكر منها البوتاسيوم (K^+) والنيترات (NO_3^-) والفوسفاط (HPO_4^{--}). فيعلق الأول بالمركب المكون من الذبال **(humus)** والمادة الغروانية **(colloïdes)** لأن لديه شحنة موجبة في حين يتسرب جزء كبير من النيترات والفوسفاط إلى أعماق طبقات التربة بسبب شحنتيها السالبتين فيصل إلى المياه الجوفية، فيرتفع في هذه المياه تركيز هذين العنصرين بشكل ملحوظ. ولم تنج بحيرات المياه العذبة من شر هذه الظاهرة حيث كثر فيها تركيز النيترات والفوسفاط. ومن الواضح أن هذين العنصرين يشكلان قوتا متميزا للنباتات المائية وخصوصا المجهرية منها التي تطفو على سطح الماء **(Phytoplancton)** فتأخذ في التكاثر بشكل غير طبيعي ويختل التوازن، ويرتفع إنتاج المادة العضوية (أنظر الصورة ٣)، فتتراجع كمية الضوء التي كانت تخترق سطح الماء، وينقص الأكسيجين وتختفي بعض أنواع الأسماك، وتنخفض الثروة السمكية. وعند موت هذه النباتات المجهرية، تتفكك إلى عناصرها الأولية، فتتراكم المادة العضوية ويتكون الوحل، وتدعى هذه الظاهرة، بظاهرة التخصب **(Eutrophisation)**. وهذا ما شوهد في بعض السدود حيث شكل الوحل عائقا لوظيفة هذه السدود. ومن أنجع الحلول لظاهرة التوحل، نذكر إدخال بعض فصائل الأسماك لمنع تراكم المادة العضوية.

* ظاهرة التصحر:

إن الإنتاج الزراعي المكثف وإزالة الأشجار وإتلاف الغابات يؤدي إلى تعرية الأراضي (أنظر الصورتين ٤-٥) واستنزاف التربة مما يترتب عنه فقدان الأرض لقدرتها الإنتاجية في الزراعة والرعي وبالتالي عجزها عن تحقيق الأمن الغذائي للبشرية.

كما أن التربة تتعرض للضياع بسبب الانجراف والتملح وعدم ملاءمة أساليب الري مما يؤدي إلى التصحر **(Désertification)**.

وبما أن الغطاء النباتي يحدد مستوى التساقطات، فإن الطرق الزراعية المكثفة وغير الملائمة من شانها إحداث تغييرات عميقة في دورات المياه على مستوى القارات مسببة بذلك تغيرات مناخية على الصعيد الجهوي.

* ظاهرة الرضيع الأزرق:

أما في الميدان المتعلق بالصحة، فمن أهم مشاكل الإنسان المرتبطة بوفرة النيترات في المياه الصالحة للشرب نذكر تسمم المستهلك بالنيترات وما ينتج عنه من الإصابة بمرض تنفسي عند الرضيع أو احتمال الإصابة بداء السرطان عن طريق النيتروزامين **(Nitrosamines)**.

إن الكريات الحمر الموجودة في دمائنا تحتوي على مادة الهيموغلوبين **(Hémoglobine)** وهو الصبغ التنفسي الأحمر المسؤول عن حمل الأكسيجين إلى الأنسجة والخلايا والتخلص من ثاني أكسيد الكربون.

وقد يسبب تركيز النيترات في غذاء الرضيع (عن طريق الماء أو الحليب) إلى تحول هذا الصباغ التنفسي هيموغلوبين إلى صبغ آخر مخالف للأول يدعى ميتهيموغلوبين **(méthémoglobine)**، لا يستطيع بالقيام بعملية نقل الأكسيجين، فيصاب الرضيع بالدوران والاختناق. وهذه الظاهرة يطلق عليها ظاهرة الرضيع الأزرق **Syndrome des bébés bleus**.

وعلى سبيل المثال، فالمقاييس المعتمدة في دول أوروبا الغربية بالنسبة لتركيز النيترات في الماء والتي يسمح بها التشريع هناك لا تتجاوز ٦٢ ميليغرام في اللتر الواحد.

وقد جاء في تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة **(PNUE)** لسنة ٢٠٠٢ بأن استعمال الأسمدة في الدول النامية لا يزال في تزايد ملحوظ في حين يعرف استقرارا في البلدان المتقدمة.

المكون الحيوي الرابع: التنوع البيولوجي:

إن الثروات النباتية والحيوانية تكتسي أهمية أساسية في حفظ التوازن البيئي وتوفير متطلبات الأمن الغذائي، بيد أنها غير أزلية لذا يجب العمل على الحفاظ عليها وتأمين استمراريتها.

فاستتراف الثروات الحيوانية من صيد وقنص مفرطين، يؤدي إلى تراجع في التنوع البيولوجي. ولعل العدد الهائل للفصائل الحيوانية والنباتية التي انقرضت أو في طور الانقراض أو مهددة بالانقراض يبرز لنا خطورة الوضع. كما أن التلوث الناتج عن طريق رمي النفايات الصلبة والسائلة واستعمال المبيدات والأسمدة والمواد المشعة قد يلحق أضرارا بالأوساط التي تعيش فيها هذه الكائنات المسخرة لخدمتنا.

وقد نشر برنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNUE) تقريره الثالث سنة ٢٠٠٢ حول المستقبل البيئي في العالم يتحدث فيه عن هشاشة الوضع بسبب تردي نوعية الهواء وتقلص الموارد المائية وتراجع التنوع البيولوجي. ويخلص بان الإنسانية تعيش حقبة حرجة لأن الخيارات التي ستلجأ إليها ستحدد مصير الغابات والمحيطات والأنهار والجبال والنبات والحيوان وكل الأنظمة الحيوية بالنسبة للأجيال الحاضرة والمستقبلية.

يقول رسول الله (ص):

"مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"[٤٦].

يقول الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري عن هذا الحديث:

"وهذا الحديث الشريف يبين أن هذه السفينة التي نحن جميعا فيها، فيها نوع من البشر لا تهمه إلا مصلحته، ولا يهمه ما إذا أصاب الناس خير أم أصابهم شر من سعيه من وراء تحقيق هذه المصلحة، وأنه ينفرد بتقدير مصلحته، وأنه حر في ميع الأعمال التي تؤدي إلى هذه المصلحة التي انفرد بتقديرها لأن جميع من في السفينة ليس لهم أية دالة عليه فهم جميعا مجرد ركاب مثله لهم نفس الصفة والوضعية القانونية ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ...

وهذا النوع من البشر هم الواقعون في حدود الله، والأخذ على أيديهم واجب وإلا هلك الجميع ...".

ويضيف قائلا:

"... الخطر الكبير الذي يتهدد السفينة من مثل هذا الإنسان الذي أراد خرقها هو خطؤه في تقديره المصلحة وخطؤه في تقدير المسؤولية، والحرية والمصلحة لم تتركهما الشريعة هملا، بل تناولتهما بالتنظيم والتقنين والتوجيه حتى أصبحا مؤديين للصالح العام وحتى جردتهما من كل خطر يمكن أن يتهدد السفينة".

www.eajaz.org

وبعد الوقوف عند هذا الحديث الشريف، لنرجع إلى واقع السفينة المر لنسأل أنفسنا:

- وهل ثقب طبقة الأوزون إلا بداية ثقب في السفينة ؟
- وهل تدمير المكونات الأساسية للحياة إلا تكسير للسفينة ؟
- وهل انبعاث الغازات السامة في الهواء إلا "خنق" السفينة ؟
- وهل رمي النفايات الصناعية والفضلات في الأنهار والمحيطات إلا إغراق لهذه السفينة ؟

www.eajaz.org

الـــخـــاتـــمـــة:

إن الهدف من هذا البحث المتواضع الذي ارتكز أساسا على الآية المعجزة، آية حدوث ظاهرة الفساد في البر والبحر وتحديد المسؤول عنها والمتضرر الرئيسي منها هو دق ناقوس الإنذار على أن تحقيق التنمية التي هي ضالة كل مجتمع لا ينبغي أبدا أن يتم على حساب التوازن الإيكولوجي.

من هنا، كان لابد على الإنسان أن يستخدم "ورقة" الخلافة في الأرض والمسؤولية التي تترتب عليها، مسؤولية إدارة ثرواتها وتدبير مواردها واحترام وجود الكائنات التي تحيى عليها والتي سخرها الله لخدمة هذا الإنسان ... فكان عليه أن ينطلق من الدستور الذي أنزله الله إليه وتحديدا من أول آية أنزلت على النبي محمد (ص) من سورة العلق "إقرأ باسم ربك الذي خلق" (العلق، ١) فيتعامل مع الكون وفق المنهاج الذي رسمه له رب العزة، فيكون مستغلا برفق، لا متسلطا بعنف، شاكرا لأنعم الله لا كافرا بها (كما جاء في سورة النمل على لسان سليمان عليه السلام عندما سمع نملة تأمر إخوتها بولوج مساكنهن خوفا من أن يحطمهن سليمان وجنوده وهم لا يشعرون).

وعندما نتكلم عن الإنسان نقصد البعد الفردي والجماعي.

فعلى المستوى الفردي، تطال المسؤولية كل فرد في المجتمع حسب موقعه ودرجته وقد أوضح لنا الرسول الأكرم (ص) عموم المسؤولية في الحديث الصحيح الذي رواه ..

"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ...".

أما على المستوى الجماعي، فينبغي التمييز بين المستويين الوطني والعالمي وما يمكن فعله في كلا الحالتين، فعلى الصعيد الوطني، يجب إقرار سياسات بيئية واضحة وفعالة وملائمة للواقع المعيشي، من بينها إعادة التنشئة الاجتماعية (الاهتمام بالطفل كرجل الغد) على أساس احترام المجال البيئي (وهو ما اصطلح عليه باسم التربية البيئية)، ولنا في تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة خير مرجع يعتز به المسلم أيما اعتزاز (إن الله أعزنا بالإسلام، فمن ابتغى الغرة في غير الإسلام، أذله الله).

أما على الصعيد العالمي، فإن في حديث السفينة التي استهم عليها القوم، من العبر ما يكفي لإنارة طريق الإنسانية والحفاظ على مقومات الوجود الإنساني.

وحيث أن الوجود هو بنية متكاملة متجانسة تتفاعل بداخلها عناصر وأنماط ومستويات في منتهى الدقة والإتقان والحكمة.

وأن كل خلل مصدره سلوك إنساني قد يؤدي إلى فقدان التوازن وطغيان في الميزان، مما يفضي إلى الخراب والهلاك وغرق السفينة.

وكما أن لكل ظاهرة منطلقاتها، فإن الفساد ينطلق من الخروج عن السياق الإسلامي في الحركة والحياة والابتعاد عن النمط الرباني والمنهاج الإلاهي الذي يؤطر الوجود ككل.

وحيث أن السفينة التي تكلم عنها الحديث الشريف هي الصورة المجازية لهذا التعبير على مستوى القيادة وحسن تدبيرها وتأمين الحياة بداخلها، والحديث عن التدبير يجرنا إلى الحديث عن ربان هذه السفينة والذي من المفروض أن يستمد تعاليم القيادة من مصادر ثابتة لا يطالها الخطأ والتقادم، ومراجع تتوفر على أدوات وتقنيات تتجاوز سلطة الزمان والمكان في مسار هذه السفينة، وهذا لن نجده إلا في كتاب الله وسنة رسوله (ص). "والله يعلم المفسد من المصلح"[٤٧].

وبالله التوفيق

www.eajaz.org

الـــمـــراجـــع:

- القرآن الكريم.
- الوعي الكوني في التصور الإسلامي – الدكتور صبحي الصالح – الدروس الحسنية ١٤٠٣-١٤٠٤ هجري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية – ص: ٥٩-٧٢.
- المصلحة والمسؤولية – الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري – الدروس الحسنية ١٤٠٣-١٤٠٤ هجري وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية – ص: ٩٥-١١٩.
- دراسات بيئية، تحليل لبعض المشكلات من وجهة نظر إسلامية – الإنسان وعلاقته بالبيئة – رؤية إسلامية د. فاروق حمادة – منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- إدماج المفاهيم البيئية في البرامج التعليمية ما قبل الجامعية (أوراق بحثية) التربية البيئية من وجهة نظر إسلامية – د. عبد اللطيف محمود آل محمود – منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- إدماج المفاهيم البيئية في البرامج التعليمية ما قبل الجامعية (أوراق بحثية التربية البيئية واستراتيجية إدراجها في المناهج التعليمية) – د. محمد فتوحي.
- تقرير عن التنمية في العالم – التنمية والبيئة – مؤشرات التنمية الدولية – منشورات البنك الدولي – ١٩٩٢.
- الزراعة المروية وأثرها على استنزاف المياه الجوفية في شمال غرب سهل جفاره – حسن محمد الجديدي – ١٩٨٦ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان – الجماهيرية الليبية.
- نحو مغرب مصدر للطاقة – ذ. عبد العزيز بنونة – ١٩٩٤ – مطبعة دار النشر المغربية – الدار البيضاء.

www.eajaz.org

الصورة ١: تلويث المياه عبر إلقاء الفضلات (صورة: زايد).

الصورة ٢: ثقب الأوزون فوق القارة القطبية الجنوبية (صورة مأخوذة من طرف مركز الأبحاث الفضائية الأمريكية).

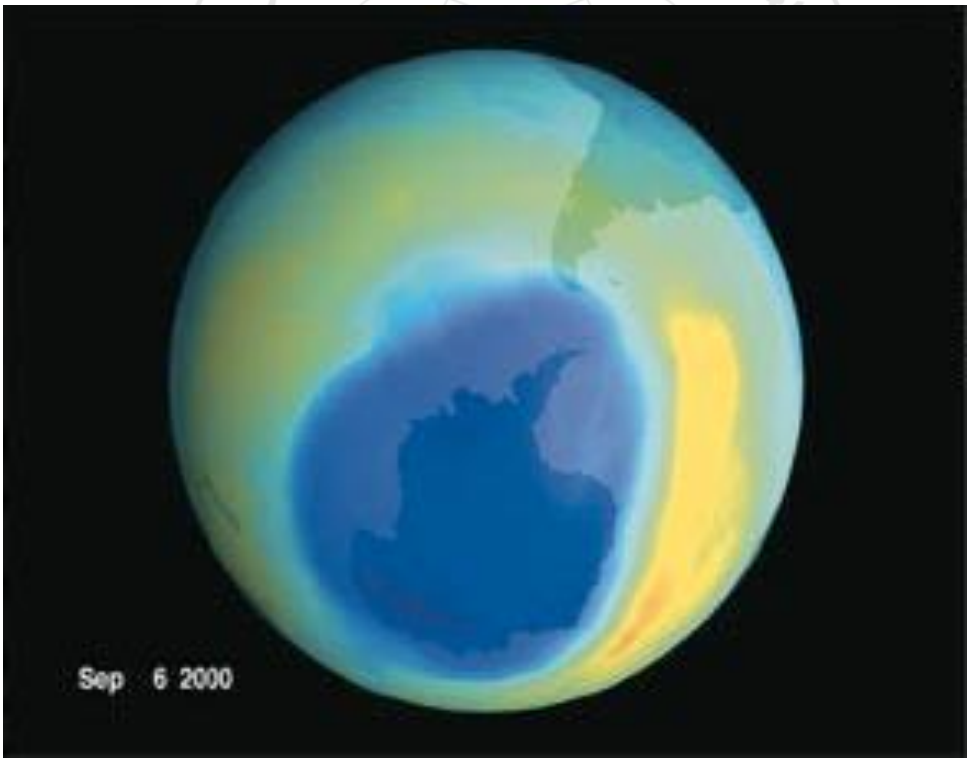

الصورة ٣: إنتاج المادة العضوية فوق سطح الماء نتيجة ظاهرة التخصب (صورة: زايد).

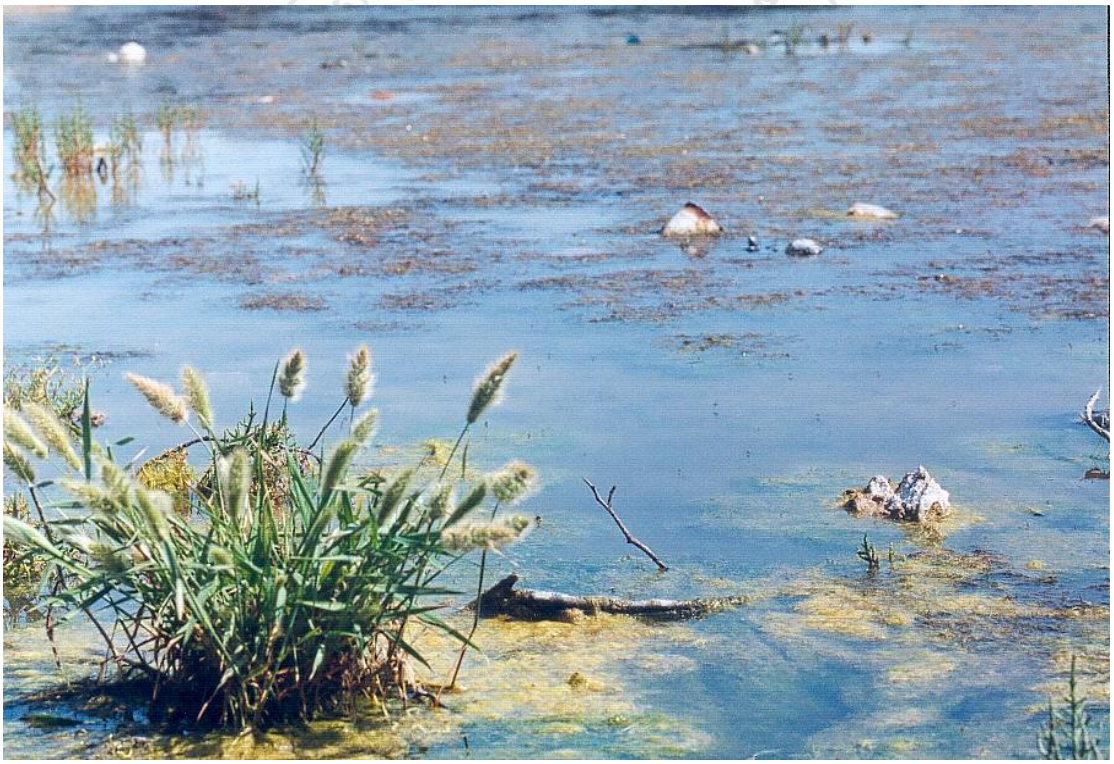

الصورة ٤: صورة عن ظاهرة زحف الرمال بنواحي مدينة الصويرة (المغرب) نتيجة التصحر (صورة: زايد).

الصورة ٥: لاحظ عامل الريح الذي تعكسه تموجات الكثبان الرملية (صورة: زايد).

الهوامش

[1]- محمد: ٢٤.
[2]- آل عمران: ١٩٠-١٩١.
[3]- فاطر: ٢٨.
[4]- هود: ١٠٢.
[5]- الأعراف: ٦٦.
[6]- البقرة: ٣٠.
[7]- الأنعام: ٥٦٥.
[8]-الاسراء: ٧٠.
[9]- الحجر: ٢٩؛ ص: ١١.
[10]- الحجر ٢٩؛ ص: ١١.
[11]- البقرة: ٢٨.
[12]- الجاثية: ٣٣.
[33]- ابراهيم: ٣٤-٣٦.
[14]- الإسراء: ٢٠.
[55]- هود: ٦١.
[16]- القمر: ٤٩.
[77]- الرعد: ٨.
[18]- الحجر: ١٩.
[19]- آل عمران: ١٩١.
[20]- الإسراء: ٥٥.
[21]- الأحزاب: ٧٢.
[22]- فصلت: ١٠.
[23]- الإسانن: ٣.
[24]- الشمس: ٧-١٠.
[25]- الأعراف: ٥٥٥-٧٧٦.
[26]- البقرة: ٢٠٤-٢٠٥.
[27]- الإسراء: ٢٦-٢٧.
[28]- الأعراف: ١١.
[29]- الفرقان: ٦٧.
[30]- الإسراء: ٢٩.
[11]- البقرة: ٣٤٣.
[32]- متفق عليه.
[33]- أخرجه مسلم وابن ماجة.
[34]- أخرجه البيهقي.
[55]- غافر: ٢٦.
[36]- غافر: ٢٩.

الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة
INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH
رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE
www.eajaz.org

[٣٧]- الروم: ٤١.
[٣٨]- هود: ٧.
[٣٩]- الأنبياء: ٣٠.
[٤٠]- النور: ٤٥.
[٤١]- الطارق: ٥-٧.
[٤٢]- الزمر: ٢١.
[٤٣]- أخرجه ابن ماجة.
[٤٤]- الذاريات: ٢١.
[٤٥]- الواقعة: ٦٨-٧٠.
[٤٦]- أخرجه البخاري.
[٤٧]- البقرة: ٢٢٠.

الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة
INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH
رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE
www.eajaz.org